الباب الأول

المقدمة

أ- الخلفية

كان التصوف أول تطوره يصطبغ بصبغة العبادة و الزهد و التقشف و الترقي الخلقي و أراد العلماء بهذه كلها السعادة الأخروية.

و بعد أن اتسعت الخلافة الإسلامية بعد فتوحات الدولة المجاورة شرقا و غربا تقدمت حضارتهم، اختلط المسلمون بالأمم الأجنبية دينا و حضارة خاصة ، فتأثر المسلمون بحضارة الهلينية و الفارسية و الديانات الزرداشتية و المانوية و المزدكية والبوذية و خصوصا في نظرية الفناء و المعرفة. تبين تأثير الفناء في نفس أبي يزيد البسطامي المتوفى ٣٦١ هـ بكلامه،"إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني"[١]. و قوله، "سبحاني ما أعظم شأني"[٢]. و ظهر تأثير قول أهل الكتاب، "خلق الله آدم على صورته"[٣]، في نفس الحلاج بقوله، " أنا الحق" و " أنا هو الله و ما في جبتي إلا الله"[٤].

و بعد هذا كله تيسر للتصوف أن يتطور من حالته الأولية إلى شكل جديد. و ظل هذا التطور إلى قيمته الملموس ألا و هو في التعاليم الصوفية و اكتمالها في تعاليم أصحاب الكشف و أصحاب الوحدة. فأصبح التصوف طريقا للمعرفة بعد أن كان طريقا للعبادة.

---

[١] دكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازني، *مدخل في التصوف الإسلامي*، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩ ص: ١١٩

[٢] *نفس المرجع*، ص: ١٢٠

[٣] رينولد ا. نيكلسون، في *التصوف الإسلامي و تاريخه*، نقلها إلى العربية: أبو الأعلى عفيفي، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، دون المطبعة، دون السنة، ص: ق

[٤] أحمد توفيق عياد، *التصوف الإسلامي*، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص: ٨٠

بدأ الصوفية يتكلمون عن المعرفة، منهم المعتدلون الذين يربطون أراءهم التصوفية بالكتاب و السنة أو يزنون أراءهم دائما بالشريعة. و بعض الآخرين نطقوا بعبارات غريبة، كما يرى الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، "أن تصوفهم لا يخلو من بعض المنازع الميتافيزيقية في صورة بسيطة"[٥].

و كان أول من تكلم بالمعرفة هو معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ هـ، يعرف ذلك من قوله، "التصوف الأخذ بالحقائق ، و اليأس مما في أيدي الخلائق"[٦]. يريد به أن التصوف هو علم الحقيقة الذوقية التي تنكشف له في مقابل الحدود الشرعية، و أنه أيضا زهد مما في أيدي الناس أو الزهد و المعرفة. وأنه يرى ضرورة العلم و العمل، "إذا عمل العالم بالعلم استوت له قلوب المؤمنين، و كرهه من في قلبه مرض"[٧].

قيل إن أول من تكلم منهم عن المعرفة هو ذا النون المصري، و لد في أخميم بصعيد مصر سنة ١٠٠ هـ و توفي سنة ٢٤٥ هـ. و أنه يتجه إلى ربط المعرفة و الشريعة، فيقول " علامة العارف ثلاثة: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، و لا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم، و لا تحمل كثرة نعم الله عز و جل على هتك أستار محارم الله تعالى"[٨]، يريد به أن المعرفة الصحيحة هي المطابقة بحدود الشريعة. و أنه أول من تحدث في الأحوال والمقامات[٩].

و ممن تكلم بالمعرفة أبو سليمان الدراني المتوفى سنة ٢١٠ هـ بقوله، " لا يزهد في شهوات هذه الدنيا إلا من وضع الله في قلبه نورا يشغله دائما بأمور

---

[٥] دكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، *المرجع السابق*، ص: ٩٩

[٦] *نفس المرجع*، ص: ١٠٠

[٧] *نفس المكان*

[٨] *نفس المرجع*، ص: ١٠١

[٩] *نفس المكان*

الآخرة"[١٠]. هذا تعبير بأن أساس المعرفة الصوفية هو نور الذي قذفـــه الله في قلـــب الصوفي.

ثم جمع المحاسبي بين العلم بالشريعة و العلم بالحقائق و تكلم في مقامات الطريق إلى الله و أحواله، كما يرويه العطار، " أساس العبادة الورع، و أساس الورع التقوى، و أساس التقوى محاسبة النفس، و أساس المحاسبة الخوف و الرجـــاء، و الخـــوف و الرجاء يرجعان إلى العلم بالوعد و الوعيد، و فهم الوعد و الوعيد يرجع إلى تذكـــر الجزاء، و تذكر ا لجزاء يرجع إلى التفكر و الاعتبار"[١١].

و إن كثرا من الصوفية يتكلمون عن نظرية المعرفة، لكن على الرغم مـــن أن الصوفية الأوائل قد تكلموا عنها أن منه القضية الملتبسة بكل الغموض. ثم جاء الغزالي كمجدد، فرق بين المعرفة والعلم. فسمى المعرفة بعلم الباطن و المكاشفة و سمى العلوم الأخرى من أدب و فلسفة و دين و رياضة و طب علم الظاهر.

عالج الغزالي المشكلة في نظرية المعرفة و فض رموزه و توسع في توضيحـــه ثم أقام على أساس فلسفي ديني يعتمد كثيرا على أحكام الشريعة الإسلامية.

أما ما يتعلق بنظرية المعرفة عن أهل الوحدة و الحلولية، فقال الغـــزالي تعليقـــا لقولهم ، " أنا الحق" و "أنا هو الله و ما في جبتي إلا الله"، "نظر النصارى إلى المســـيح فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا في مـــرآة أو في مـــاء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمد يده ليأخذه و هو مغرور"[١٢].

فأصبح الغزالي أول واضع و إمام أهل الكشف و المعرفة، و من جهده أيضـــا يصير التصوف مقبولا عند المسلمين بعد أن أرجعه إلى مهد الكتاب و السنة.

---

[١٠] *نفس المرجع*، ص: ١٠٠

[١١] *نفس المرجع*، ص: ١٠٦

[١٢] أحمد توفيق عباد، *المرجع السابق*، ص: ٧٩

فمن أجله و جد الباحث في نفسه تشجيعا كبيرا لأن يبحث عن حقيقة نظرية معرفة عند الغزالي، حيث أنه يعتبر أحسن المعالج لقضية المعرفة و مقنع كثير من الباحثين فيها.

ب- توضيح العنوان

حاول الباحث أن يكتب بحثه بعنوان "نظرية المعرفة عند الغزالي". يرى الباحث أنه من واجبه أن يشرح هذا الموضوع على سبيل الإيجاز قبل خوض في لب المبحث فرارا عن الفهم السقيم.

١. نظرية المعرفة، إن هذه الجملة تتكون من كلمتين نظرية و معرفة .فكلمة النظرية مشتقة من مادة "نظر"، ومعناه أبصر وتأمل بعينه وقد أتى بمعنى دبر وفكر فيه يقدر ويقيس. و النظرية بمعنى القضية المحتاجة إلى برهان لإثبات صحتها[١٣].ويقال في اللغة الإنجليزية بـ"Theory" لمعنى البيان الإجمالي عن أصول الفنون والعلوم (العملي) أو الحجة التي يعرض كبيان للحديثة[١٤]. وقد تأتي للدلالة على طائفة من الآراء تفسر بها بعض الوقائع العلمية أو الفنية[١٥]، أو فرع من الفنون و العلوم المتألف من مبادئ العلوم و منهجه أقرب من ممارسته، وضع خالصة من التطبيق العلمي[١٦]. و عرف الدكتور راجح عبد الحميد الكردي بأنه، "قضية أو تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة، تهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات، كما أنها تطلق على ما يقابل الممارسة العملية في مجال الواقع. أي على

---

[١٣] أبو لويس معلوف، *المنجد في اللغة و الأعلام*، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ص: ٨١٧

[14] As. Hornby, *Oxford Advanced Learner's Dictionary of Current English*, Oxford University Press, Great Britain, 1986, hal: 896

[١٥] الاستاذ أحمد العابد و الدكتور أحمد مختار عمر و الجيلاني بن الحاج يحي و الدكتور داود عبده و الدكتور صالح حواد طعمة و نديم مرعشلي، *المعجم العربي الأساسي*، المنظمة العربية للتربية و الثقافة في العلوم، دون المكان، ١٩٨٦، ص: ١٢٠٦

[16] Simon and Schuster, *Webster's New World Dictionary*, Third College Edition, t.p., New York, 1994, Hal: 1378

التجربة الخالية من الغرض، المتجردة من التطبيقات العلمية[١٧]. و أما المعرفة مشتقة من "عرف" و هو مرادف للعلم[١٨]، و المراد من هذا اللفظ هو العلم الذي حصل عليه العقل و في التصوف يريد منه معرفة الله تعالى من قرب و يصطلحه الغربي "Gnosis" و هو العلم عن طريق سر أي بصيرة[١٩].و أما المعرفة عند اصطلاح عامة الصوفية هي العلم بأسماء الله تعالى و صفاته مع الصدق لله في معاملاته و جميع أحواله ودوام مناجاته في السر، و الرجوع إليه في كل شيء، و التطهير من الأخلاق و الأوصاف الرديئة. و المعرفة معرفتان: معرفة حق و معرفة حقيقة. فمعرفة الحق معرفة وحدانية الله تعالى بما أبرز للخلق من أسمائه و صفاته، و معرفة الحقيقة لا سبيل إليها لامتناع الإحاطة بها علما[٢٠]. قال تعالى، " و لا يحيطون به علما"[٢١].

فنظرية المعرفة هي دراسة منهجية منظمة لقضية العلم أو مسألة المعرفة بدراسة ماهية المعرفة و إمكانها وطبيعتها وطرق الوصول أليها وقيمتها و حدودها. إن هذه المصطلح يقابل بمصطلح "إبستمولوجيا" (Epistemology) و هو مؤلف من "Episteme" معناه معرفة و "Logos" معناه نظرية. فابستمولوجيا هي نظرية العلوم أو الفلسفة العلوم، أي دراسة مباديء العلوم وفرضيتها، ونتائجها.

أما المراد بنظرية المعرفة هي آراء أو قضية متعلقة بأسماء الله تعالى وصفاته مع الصدق في معاملاته و جميع أحواله ودوام مناجاته و الرجوع إليه في كل شيء و التخلي من الأخلاق الرديئة و التحلي بالأخلاق الكريمة.

---

[١٧] الدكتور راجح عبد الحميد الكردي، *نظرية المعرفة بين القرآن و الفلسفة*، مكتبة المؤيد، الرياض، ١٩٩٢، ص: ٦٣

[١٨] أبو لويس معلوف، *المرجع السابق*، ص: ٥٠٠

[19] Dewan Redaksi Ensiklopedia Islam, *Ensiklopedia Islam*, PT. Ichtiar Baru Van Hoeve, Jakarta 1994, hal: 130

[٢٠] أحمد لوفيق عياد، *المرجع السابق*، ص: ٢٧

[٢١] سورة طه: ١١٠

٢. الغزالي هو صوفي كبير ذو علم وثقافة واسعة. ومن نتيجة علمه أن جعل التصوف مقبولا عند المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية بعد أن ردوه، وذلك بعد أن أرجعه إلى مهد عقيدة أهل السنة و الجماعة.

الباحث يريد بعنوان نظرية المعرفة عند الغزالي هو البحث المنتظم عن نظريته في حقيقة مفهوم المعرفة و الأداة و الطريقة و المقامات التي اجتاز بها الصوفي للحصول على المعرفة وما يستفيده من الثمرة.

جـ- الدواعي

أما الدواعي التي تدفع الباحث إلى كتابة هذا البحث فهي كما يلي:

١. إن المعرفة أمر مهم جدا في حياة العبد، حيث به يعرف العبد حقيقة ربه و نفسه.

٢. ٢. إن التقدم في المجلات العلمية و الفنية مما يجعل حياة الناس تهدف إلى الحياة المادية المجردة و يوقعهم في الغفلة عن وجود الحياة في الآخرة.

٣. إن الغزالي هو صوفي كبير يجعل التصوف طريقا لمعرفة رب العالمين. و في يده يكون التصوف يصطبغ بصبغة خاصة، أرجع أصوله إلى مهد عقيدة أهل السنة و أنه يعتبر أول من حلل مشكلة معرفة تحليلا واضحا بعد أن كان مبهما.

د- تحديد المسألة

مؤسسا علي ما قدمه الباحث في الخلفية، فعرض الباحث أن المسألة و القضية التي أراد الباحث تحليله هو، "ما هو حقيقة نظرية الالمعرفة عند الغزالي في سلوكه الطريق للوصول إلى رب العالمين؟" حتى يعدى من مقدم و إمام أهل الكشف و المعرفة. ثم قسم الباحث هذه المسألة كما يلي:

١. ما مفهوم المعرفة عند الغزالي؟.

٢. ما هو الطريق للوصول إلى المعرفة ؟.

٣. وكم مقامات التي يلزم على الصوفي أن يجتاز بها ؟.

٤. وما هي الثمرة التي استفادها الصوفي بهذه المعرفة؟.

هـ- أهداف البحث

و أما الأهداف التي يرمي الباحث إليها في هذه المسألة فهي:

١. الكشف عن حقيقة المعرفة عند الغزالي.

٢. الكشف عن الطريق للحصول على المعرفة.

٣. الكشف عن المقامات التي اجتاز بها الصوفي.

٤. الثمرة التي استفادها الصوفي بهذه المعرفة.

و- أهمية البحث

و المنافع التي يرجوها الباحث في بحثه بعد الحصول على النتيجة فهي:

١. أن يكون هذا البحث حلا علميا في إحدى المسائل الشائع الذكر و معطيا علميا في قضية التصوف و خصوصا في نظرية المعرفة.

٢. أن يكون هذا البحث تبرعا للطلبة، من أراد الإصرار على البحث في مادة التصوف.

٣. أن يزيد للطلبة حقائق علمية في مجال علم التصوف الإسلامي، و خصوصا طلبة جامعية و القراء عامة من أراد التعمق في قضية التصوف.

ز- منهج البحث

للحصول على الحقائق العلمية، استخدم الباحث في هذا البحث دراسة مكتبية بمطالعة الكتب المتعلقة بالموضوع التي تكون مراجع بحثه. ثم سار الباحث في تحليل القضايا على المناهج الآتية:

١. المنهج التاريخي (Historical Method) و هو المنهج العلمي الموصل إلى النظرية العلمية بدراسة ترجمة الحياة و المؤلفات و الوثائق المحتوى على آراء و تفكير أحد و

الحوادث الماضية[٢٢]. استخدم الباحث هذا المنهج للحصول على معرفة ترجمة الغزالي و الأحوال الاجتماعية في ذلك العصر التي تكون خلفيـــة لتفكـــيره في إحـــداث التجديد.

٢. المنهج الاستدلالي (Deductive Method) و هو طريقة تحليل المسألة المســـتمدة علـــى التفكير لتطبيق النتائج العامة في المسائل الخاصة[٢٣]. استخدم الباحث هـــذا المنـــهج لتحليل المسائل المتعلقة بنظرية الغزالي في المعرفة.

٣. المنهج التحليلي (Analytic Method) و هو تركيز الفكر لتحليل المسائل من المســـائل المجموعة ثم بيانها و مناقشتها بعد ذلك[٢٤]. استخدم الباحث هذا المنـــهج لتحليـــل المسائل المتعلقة بنظرية الغزالي في مسائل المعرفة و الأداة الـــتي اتخذهـــا و طريـــق الوصول عليها و ممرها، ثم مناقشتها للحصول على استنباط صحيح.

٤. المنهج الاستقرائي (Inductive Method) و هو المنهج الاستنتاجي و الاستنباطي بجمع الحقائق في المسألة حتى أن بلغ إلى حد ما ثم استنباط و استنتاجه[٢٥]. و اســـتخدم الباحث هذا المنهج لتحليل نظرية الغزالي في مسائل المعرفة ثم الاستنباط منه.

حـ- طريقة البحث

و ليتيسر على الباحث للحصول على الأهداف المرجوة عند بحثه نظرية الغزالي في مسائل المعرفة، قسم الباحث بحثه إلى أربعة أقسام، و هي كما يلي:

الباب الأول: يعرض الباحث فيه صورة عامة عن محتويات البحث التي يشمل على الخلفية و توضيح العنوان و الدواعي و تحديد المسألة و أهـــداف البحث و أهمية البحث و منهج البحث و طريقة البحث.

---

[22]Koentjoroningrat, *Metode-metode Penelitian*, Gramedia, Jakarta, 1993, hal: 31

[23]Sutrisno Hadi, *Metodologi Reseach I*, Yayasan Penerbit UGM, Yogyakarta, 1978, hal. 114

[٢٤] محمود قاسم، المنطق الحديث و مناهج البحث، دون المطبعة، دون المكان، ١٩٨٠، ص: ٣٨١

[25]Bakker, *Metodologi Penelitian Filsafat*, Kanisius, Yogyakarta, 1990, hal: 44

الباب الثاني: بحث فيه الباحث عن ترجمة حياة الغزالي و المعرفة عند مفكر ي المسلمين و قسمه إلى قسمين. ففي الفصل الأول بحث الباحث فيه عن ترجمة حياة الغزالي و الباب الثاني عن المعرفة عند الفلاسفة و المعرفـــة عند الصوفية.

الباب الثالث: بحث فيه نظرية الغزالي في المعرفة و هو أهم المبحث لما بحث فيه الباحث عن نظرية معرفة الغزالي. و هي تحتوي على مفهوم المعرفـــة عنده و الأداة التي استخدمها للحصول على المعرفة و الطريق للوصول إليها و المقامات التي اجتاز بها و الثمرة و آثره.

الباب الرابع: وهو الخاتمة التي تشمل على نتائج البحـــث و الاقتراحـــات و الاختتام.